Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 13:2 (1978)

الشيخ عبد القادر الكيلانى

وطريقته فى التصوف (الدراويش والقادريه)

د . حسن جاف
الاستاذ المساعد فى كلية الالهيات والمعارف الاسلامية
جامعة طهران

أجمعت جماهر البحاث فى الالهيات شرقيين كانوا أم غربيين (مستشرقين) بان الشيخ عبد القادر الكيلانى هو أحد ثلاثة أكبر صوفى الاسلام فى كل عصر وسكان ان لم يكن أعظمهم طرا كما يعده المتحمسون والاتباع. لقد أصبحت طريقته فى البحث عن المعرفة بالله وبالتصوف والزهد والمشهورة بالطريقة القادرية من أشهر الطرق الصوفية ان لم نقل أشهرها طراء و ليس أدل على ذلك من أنتشارها فى مشارق الارض و مغاربها ورفع صاحبها الى مصاف الاولياء بل الى مقام يفوق مقام الاولياء . لقد وضع الشيخ عبد القادر سلسلته المتصلة التى امتدت باذرعها فشملت العالم الاسلامى واتصلت كشبكة محكمة اوقدت جذوة التقوى والصلاح. وألهبت نفوس الاتباع والاشياع بحماسة دينية كانت امة الاسلام بحاجة ماسة اليها فى وقت عز عليها اولئك الرجال الذين تفتقدهم الاسم روحيا فى وقت المحن و حين تبتلى بالارزاء .

عبدالقادر الكيلانى او (الجيلى) هو محى‌الدين ابو محمد ابن ابى صالح زنگى دوست . ولد فى العام (٤٧٠ - ٤٧١ هـ ٨ - ١٠٧٧م) و توفى فى العام (٥٦١ هـ ١١٦٦م)(١) فى قرية (جيل)(٢) واليها ينسب. وجيلان (كيلان) تقع فى شمال ايران . وربما اتسعت نسبته هذه الى ما يعرف بمنطقة (كيلان) فى محافظة كرمانشاه

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الواقعة غرب المملكة الايرانية(٣) . ولقد جاء فى هامش ''النجوم الزاهرة،، ان (الجيلى) هي نسبة الى جيلان وهو اسم لبلاد كبيرة تقع فيما وراء طبرستان(٤) .

نسبه و شخصيته — نظرا للروايات المختلفة حول اصله و نسبه وجدنا من الانسب فى هذه الدراسة المقتضبة ان نأتى الى ذكر أشهرها واقربها الى المتداول وآراء بعض مورخى السيرة والباحثين المعتمدين . ان السير العديدة التى دبجتها أقلام الكتاب للشيخ عبدالقادر مشحونة بالروايات الخيالية وما هو قريب من الاساطير . و مع هذا فبالامكان ان يستخلص منها بعض حقائق تاريخية . قالوا ان نسبه ينتهى الى الامام الحسن المجتبى على خط مباشر(٥) . الا ان هذا يناقض الحقيقة الواقعة وهى ان الشيخ عبدالقادر كان يشار اليه ''بالاعجمى،، فى بغداد نفسها . على ان عظمة النسب وجلاله لن تقوم حاجزا فى وجهنا كما لم تقم فى اوجه اولئك الباحثين العصريين الذين ما كانت تمسكهم جرأتهم العلمية، و حرصهم على الحقائق التاريخية — عن الاستقصاء و تحكيم العقل والمنطق فى روايات السلف بروح علمية متجردة . لقد أجمعت آراء الباحثين والمحققين على ان سلسلة النسب هذه انما كانت من وضع وصياغة حفيده (القاضى ابو صالح نصر) الذى ينسب اليه ايضا كثير من الروايات الخيالية عن جده .

و يقول (حافظ ابن كثير الدمشقى) فى الموضوع ذاته ''هو الشيخ عبدالقادر الجيلى ابن ابى صالح محمد الجيلى ولد فى العام ٤٧٠ الهجرى و أخذ علم الحديث والفقه من أبى سعيد المخرمى الحنبلى الذى بنى مدرسة لتدريس العلوم الدينية و فوض امرها الى الشيخ عبدالقادر الگيلانى لارشاد طلاب العلم . كان الشيخ رجلا تقيا ورعا متواضعا صاحب الكرامة والمكاشفة وتوفى فى سن يناهز التسعين و دفن فى المدرسة التى كان يدرس فيها . وينتهى نسبه الشريف الى الامام الحسن

ابن على رضى الله عنهما (٦) و بخصوص نسبه هذا يأتى حفيده (القاضى ابوصالح نصر) بشجرة نسبه المنوه بها التى نقلها عنه الباحثون و كتاب السيرة المسلمون حرفيا و بالشكل التالى :

''محى الدين ابو محمد السيد عبدالقادر الكيلانى ابن ابى صالح موسى بن عبدالله الجيلى ابن يحى الزاهر ابن داؤدبن موسى بن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن حسن المثنى ابن الامام الحسن ابن الامام على ابن ابى طالب(٧) .

خلافا لماذكرناه بخصوص تنظيم هذه الرواية عن نسبه . هنالك دليل سنطقى يصعب دحضه الا بالاقرار بوجود سهو واسقاط اسماء من السلسلة . والامر يتعلق بحساب اعمار الاجيال لاجداد الشيخ عبدالقادر المذكورين . فاذا اعتبرنا متوسط عمر الجيل الواحد(٣٥) سنة وهو اعتبار فيه اسراف كبير عند تقدير عمر اجيال ذلك الزمن — فانه سيكون بين الامام على ابن ابى طالب والشيخ عبدالقادر (٣٥٠) سنة . وبما ان ولادة الشيخ هى فى العام ٤٧٠ فسيكون لدينا فراغ بمقدار (١٢٠) سنة اى اكثر من ثلاثة اجيال . و هذا ما اخطأته بصيرة ذلك الذى صنف شجرة النسب و من نقلها عنه فيما بعد .

و شبيه بنسبه من جهة الاب مالفق عن نسبه من جهة الام وهى ام الخير امة الجبار فاطمة بنت عبدالله الصومعى(٩) فقد جعلت شجرتها تنتهى هى الاخرى بالامام الحسين بن على(٨) (رض) و كلا الاب والام كما قيل لنا — كانا من الصالحين .

قال لنا كتاب السيرة ان (الشيخ) كان منذ طفولته مثالا للصدق و تمسكه بالحقيقة والاعتصام بها . ويورد (جامى) حكاية عن مبلغ صدقه و تمسكه بالحق فى كتابه (نفحات الانس) إذ قال ''قال الشيخ عندما نويت السفر الى بغداد طلبا

للعلم اخبرت والدتي بالامر فجزعت و بكت لفراقي وسلمتني اربعين دينارا من ميراث والدى الراحل واخفت تلك النقود بخياطها تحت ابط قميصى واذنت لى بالسفر واوصتنى ان لا احيد عن قول الحق واجانب الكذب واتمسك بالصدق فى كل ظرف و حال . و بعد أيام توجهت الى بغداد فى قافلة صغيرة . و عندما كنا فى طريقنا اليها تصدى لنا بالقرب من همدان ستون فارسا من قطاع الطرق فالقوا علينا القبض و نهبوا اموال القافلة . و فى بادئ الامر لم يتعرض لى احد . و بينما هم منشغلون بجمع المنهوبات اقبل علّى واحد منهم فسألنى ما عندك من مال ايها الفقير ؟ قلت له عندى اربعون دينارا . قال و اين هى ؟ قلت تحت ابطى مخاطة بالقميص . فداخل الشك قاطع الطريق فى صدق قولى و حسبنى امزح . فتولى عنى غير مهتم بماقلت . و بعد برهة من الزمن اقبل على واحد آخر منهم فسألنى السؤال نفسه فتلقى الجواب عينه . فتوجه الاثنان الى رئيسهم و حكيا له ماسمعاه منى فاستدعانى و كان واقفا على مرتفع من الارض يشرف على توزيع الاموال المنهوبة بين رفاقه وسألنى عن موضع المال فأخبرته له فشقوا قميصى واخرجوه . و عندها شرع رئيس اللصوص يلومنى و ينتهرنى على قول الحقيقة بقوله ''ويحك ! من أجبرك على ان تكشف عن مخبأ مالك و تدلنا عليه ؟ قلت له،، عاهدت والدتى على قول الصدق والتمسك به فى كل الاحوال و لن انكث بعهدى واخون الثقه التى وضعتها بى والدتى بسبب اربعين دينارا . فبكى رئيس الحرامية و قال ''الويل لى اذن . فانا منذ سنين عدة اخون عهد الله . ماذا سيكون جزائى يوم القيامة ؟ و من ساعته طلب رئيس الحرامية المغفرة من الله و تاب على يدى(١٠) . ثم انه كاشف اتباعه بتوبته فساروا على نهجه وتابوا جميعا الى الله و كانوا اول من تاب على يدى(١١)

قلنا، أرسل الشيخ عبد القادر الى بغداد و هو فى من الثامنة عشرة لتحصيل

العلم . فدخلها فى العام (٤٨٨هـ ١٠٩٥م) و كان ذلك فى عهد الخليفة ''المستظهر بامرالله،، . وانتظم فى صفوف طلاب العلم معتمدا فى معاشه اول الامر على والدته . و داوم حضور حلقة التبريزى (ت ٥٠٢هـ ١١٠٩م) الدراسية فى علم الكلام و الفلسفة الاسلامية . واخذ الفقه الحنبلى (بعضهم يقول الفقه الشافعى(١٢)) و برع فيه و تعمق . و عرف من معلمينه و اساتذته (ابو الوفاء على بن عقيل) و (ابو الخطاب احمد الكودانى) و (ابو الحسن محمد ابن القاضى) و (ابو يعلى ابن الحسين ابن محمد الفراء) و بالاخص (هبة الله المبارك او ابن المبارك) و (ابو نصر محمد البناء) و هما الاستاذان اللذان كان يستشهد بهما و يقتبس منهما فى آثاره(١٣) . كما انه سمع الحديث عن جماعة منهم (ابو غالب محمد ابن ابى الحسن ابن الباقلانى) و ابو سعيد عبدالكريم بن حبيش) . وقرأ الادب على (ابى زكريا يحى بن على التبريزى) المار ذكره و صحب الشيخ (حماد الدباس) و تصوف عليه و اخذ عنه علم الطريقة . و تسلم (الخرقة) من (ابى سعيد المخرمى) و بهذا يكون حماد الدباس شيخ طريقته وابو سعيد المخرمى شيخ خرقته(١٤) وانضم الى جماعة الزهاد بعد تخرجه .

هذا كل ماعرف عنه و عن حياته فيما بين (٤٨٨هـ ١٠٩٥م) و (٥٢١هـ ١١٢٧م) عدا عن انه حج الى مكة خلال هذه الفترة وانه تزوج اذ ان واحدا من اولاده التسعة والاربعين ولد فى العام (٥٠٨هـ ١١١٤م) . واستنادا الى بعض المصادر انه عين فى آخر هذه الفترة قيما على ضريح (الامام ابى حنيفة) و هناك لازم شيخ طريقته المذكور آنفا (ابا الخير حماد (محمد) ابن مسلم الدباس) (ت ٥٢٥هـ ١١٣١م) وهو من صلحاء الصوفية المعروفين حتى ان (الشعرانى) ادرجه فى قائمته (صلحاء الصوفيين) . لقد اهتدى الشيخ عبدالقادر على يده فى

اثناء زيارة له ''فاقتنص احدهمابالآخر بازياً،، . و بسبب ذلك لقب الشيخ عبدالقادر بالباز الاشهب على قول (الدميرى) .

ان الممارسة والتلقين الصوفيين كانا يتضمنان المعاناة الشديدة ورياضة النفس رياضة بالغة القسوة، و بعد انضواء الشيخ عبدالقادر الى زمرة الصوفيين يظهر ان اصحاب الطرق الصوفية الآخرين استنكروا من (الدباس) ادخال فقيه من الفقهاء فى حلقاتهم . و بعد مدة من التلمذة على هذين الشيخين اعتبر جديرا بتسلم الطريقة والخرقة التى تسلمها كما قدمنا من القاضى (ابى سعيد مبارك المخرمى) صاحب مدرسة الفقه الحنبلى التى كانت تقع بالقرب من باب (الازج) فى بغداد حيث كان الشيخ عبدالقادر الگيلانى يبدو ملازما لها و ذلك فى العام ٥٢١هـ ١١٢٧م(١٥) .

و بناء على نصيحة الصوفى (يوسف الهمدانى) فى حدود (٥٣٥ - ٥٤٠هـ ١١٤٠ - ١١٤٥م) بدأ الشيخ عبدالقادر بالوعظ العلنى وارشاد الناس و كان فى اول الامر يرشد فى حلقة صغيرة من المستمعين اخذت دائرتها تتسع بالتدريج . ثم صعد منبر الخطابة فى (باب الحلبة) ببغداد . لكن جمهرة مستمعيه تكاثروا و تزايد قصاده بشكل مطرد فلم يربدا من ممارسة وعظه خارج الباب . فشيد له رباط (تكية) . وفى العام (٥٢٨هـ ١١٣٣م) وسعت مدرسة (مبارك المخرمى) باموال تبرع بها العموم وربما كان ذلك بعد موت او تقاعد مؤسس المدرسة (مبارك) (١٦) . لقد تم توسيع تلك المدرسة بادخال وضم البنايات المجاورة الى الاصل و عين الشيخ عبدالقادر مديرا ورئيسا لها و كان يخطب، يرشد الناس فيها كل مساء اثنين وكل صباح جمعة ويرشد فى رباطه (خلوته) كل صباح أحد .

قيل لنا ان تأثير خطبه وارشاده كان عظيما فى النفوس شديد الوقع محركا لاعمق العواطف ورويت حكايات كثيرة شبيهة بالاساطير عن الاهتداءات والانجذابات التى كانت تحصل فى مجلسه و على أثر سماع خطبه. و ذكروا لنا ان كثيرا من اليهود والنصارى اعتنقوا الدين الاسلامى بتأثير قوة حججه ، فضلا عن توبة العديد من المسلمين الضالين و حسن دينهم بعد ذلك . و كانت ترسل اليه الهدايا بوصفها نذورا من شتى اقطار العالم الاسلامى فى الوقت الذى كانت شهرته تتعاظم . و كثيرا ما زادت قيمة هذه النذور عن الدينار الواحد . الامر الذى أعانه على ضم تلاميذ (مريدين) الى مدرسته مجانا . . و كانت ترده اسئلة عديدة تتضمن مسائل فقهية من شتى الارجاء و فى مختلف المواضيع فيجيب عنها ارتجالا دون رجوع الى المصادر و المظان . و ذكروا ان الخلفاء ووزراءهم كانوا من جملة مراجعيه فى الاسئلة .

من تلاميذه : تخرج على يد الشيخ عبدالقادر علماء و صوفيون كثر . ذاع صيتهم فى العالم الاسلامى بعلمهم وتقواهم و صفاتهم الحميدة و من هولاء الشيخ (عمر السهروردى) الذى صار قطبا من اقطاب الصوفية و (ابن قدامة الحنبلى) شيخ (الامام ابن تيمية) و (الشيخ عمر ابن مسعود البزاز المتوفى فى (٦٠٥هـ ١٢٠٧م) و (احمد ابن المبارك المقرى (المتوفى فى ٥٧٠هـ ١١٧٣م) و (بشير بن محفوظ الازجى (المتوفى فى ٥٩٥هـ ١١٩٨م(١٧) (و الشيخ جمال الدين الجوزى . هولاء كلهم اشتهروا بالتقوى والزهادة و ممارسة الطريقة فى حين نبغ بعضهم فى مسالك اخرى كـ (السمعانى) مؤرخ سيرته . هولاء وامثالهم الذين كان لهم شرف الصحبة والدرس والممارسة على يد الشيخ — شيدوا بناء الطريقة الصوفية التى عرفت فيما بعد بالطريقة القادرية . لقد جاءت دعوة الشيخ عبدالقادر الكيلانى فى وقت كان الاسلام و شريعته يمران بظروف عصيبة للغاية

حيث كثرت الفرق، واشتدت الانحرافات، و شاعت البلبلة الفكرية، وعم الالحاد، و تسلط الظلم، و كثرت الفتن والاضطرابات السياسية، و اتجه التصوف ناحية الشذوذ، و ابتعد عن الشريعة حتى لم يعد يتصل بها الا بخيوط واهية هى خيوط المظاهر والادعاء . واتسعت الهوة بين اصحاب التصوف و اقطابه و بين العلماء والفقهاء فاخذ احد هما يكفر الآخر ويتهمه بالمروق والزيغ والزندقة و اخذ المتصوفة يترا شقون بالتهم الخطيرة و اقلها نبذ الدين او التمسك بحرفيته التى لاتقل عندهم عن الابتعاد عن جوهر الدين واعتبروا الفقه علم الدنيا لا علم الدين . و من امثلة ذلك ما قاله ابو طالب المكى (ت ٣٨٦هـ ٩٩٥م) ''مثل علماء السوء كمثل قناة الحش ظاهرها حسن و باطنها نتن . و مثل القبور المشيدة ظاهرها عامر و باطنها عظام الموتى،،(١٨) .

ووصل الخلاف والتنابز حدا يصوره لنا ما حكى عن (ابى عبدالله ابن خفيف) (ت ٣٧١هـ ٩٨١م) قالوا انه كان يوصى الناس بان يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية. و قالوا انه كان يخبئ المحبرة والورق فى ثيابه و يقصد اهل العلم خفية . فاذا علم به الصوفية خاصموه و قالوا له لا تفلح(١٩) . واما الصوفى المعروف جدا (ابو يزيد البسطامى) (ت ٢٦١هـ ٩٧١م) فقد كان يقول لعلماء عصره ''اخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتا عن ميت واخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت،،(٢٠) ووجه الصوفى الشهير (محى الدين ابن عربى) لمعاصره (فخر الدين الرازى) رسالة بين فيها ان علمه ليس كاملا لان العلم الكامل لايؤتى الا من الله مباشرة لا عن طريق الرواية والمعلمين(٢١) .

كان الخصام و التقاذف متبادلا من البداية ويروى لنا الأصمعى (ت ٢١٦هـ ٨٣٠م) ان فقيها معاصرا تكلم الناس فى مجلسه عن اولئك الذين يمشون بين

الناس بمهابة و وقار وهم مرتدون ثياب التائبين الخشنة . فاجاب الفقيه المذكور بقوله ''ماعلمت ان القذر من الدين،،(٢٢) .

كان سبب ذلك ان بعض فرق المتصوفة اهملت شعائر الدين و فرائضه اهمالا دفع بها فى كثير من الاحيان الى انكار السنة ورفضها رفضا كاملا . و هذا ما حمل فقهاء السنة على اتهامهم بالزندقة . و كرد فعل لهذا التسيب العقائدى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين طغت موجة مفاجئة من التعصب للشريعة الاسلامية والالتزام الحرفى بها فى بغداد و من نتائج هذه الموجة شنت حرب اضطهادية على المتصوفة فتعرض اهلها للمطاردة والمصادرة والسجن والى قتل بعضهم بحد الشرع . وفى هذا الصدد يقول (الجنيد البغدادى) وهو من ائمة المتصوفة آنذاك ''لايصل امرؤ الى مرتبة الحقيقة سالم يعامله ألف صديق معاملة زنديق،، .

واستمرت الحالة بالصوفية على هذا النسق من الشدة والتضييق حتى القرن الخامس الهجرى حيث حاول بعض الفقهاء و فريق من الصوفيين التوفيق بين المعسكرين . و هنا اخذنا نشعربان الصوفيين صاروا يحاولون التلطيف من ممارساتهم بالتقرب الى الشريعة ثانية وحاولوا ايضا تحاشى كل ما يخلق تحاملا عليهم فى نفوس خصومهم او رسيهم بجحود الاسلام . و فى هذه الفترة يقوم الصوفى الشهير (القشيرى) صاحب الرسالة القشيرية(٢٣) بتأليف كتابه الرائع الذى يعتبر محاولة جدية ناجحة فى نفى صفة الزندقة عن الصوفية وعقيدتهم والتوفيق بين ممارساتهم و بين أحكام الشريعة و اثبات ان (الاقطاب) الحقيقيين من الصوفيين والصادقين فى صوفيتهم يجب ان يكونوا مسلمين حقيقيين و صادقين(٢٤) .

وسار الغزالى (توفى فى ٥٠٥هـ ١١١١م) على نهج (القشيرى) و هكذا

حتى جاء الشيخ عبدالقادر الكيلانى بمذهبه الصوفى الذى لا يحيد قيد شعرة عن خط الشريعة المحمدية . لقد اعلن (الشيخ) على الممارسات الصوفية القديمة حربا شعواء متسلحا بعلمه الوافر و حجته الدامغة . فاعاد التصوف الى وضعه الصحيح ورده الى موردة الاساسى وهو الكتاب والسنة، واخمد صوت عقيدة (وحدة الوجود) و قطع انفاس مرددیها بالبراهين الشرعية والادلة العقلية والنقلية المنطقية مهتديا بالحقيقة الصوفية . مما دعا الشعرانى الى القول فيه ''كانت طريقته هي التوحيد وصفا و حكما وحالا و تحقيقه الشرع ظاهرا و باطنا — و كان يقول لأصحابه . اتبعوا واطيعوا ولا تبتدعوا ولا تخالفوا،، . وكان يقول لهم ايضا ! كل حقيقة لا تشهد لهاالشريعة فهى زندقة . طر الى الحق عز وجل بجناحى الكتاب والسنة . ادخل عليه ويدك فى يد الرسول صلى الله عليه وسلم . اجعله وزيرك و معلمك ودع يده تزينك وتمشط لك وتعرضك عليه .

أصل طريقته :

تركزت الطريقة بنوع خاص فى العراق وكردستان و بلاد فارس و تركية وسورية . وانك لتجد اليوم اتباع الشيخ ومن ينتسب الى ذريته حتى فى افريقيا (نيجريا) و مراكش حيث انشئت منذ العام ١١٦٤ للهجرة خلوة (رباط) فى مدينة (فاس) باسم الشيخ . وانتشرت طريقته كذلك بين مسلمى الباكستان والهند و افغانستان .

هنالك روايات عديدة حول سند طريقته و من ذلك ماجاء فى كتاب (مكتوب امر و نهى) من ان الشيخ عبدالقادر اخذ الطريقة عن ابى سعيد الذى اخذها عن ابى الحسن الهكارى الذى تسلمها من ابى الحسين(٢٥) عن ابى الفرج الطرسوسى عن فضل التميمى عن ابى بكر الشبلى عن الجنيد البغدادى عن السرى السقطى

عن معروف الكرخى عن صبيب عن الحسن البصرى عن الامام على كرم الله وجهه(٢٦) .

ان هذه السلسلة التى اثبتها الصوفى الكردى الشهير صاحب (مكتوب امرونهى) وهو من متصوفة القرن التاسع عشر شبيهة بمحاولة احفاد الشيخ فى اختراع شجرة نسب له تصله بالائمة العظام فليس فيها صوفى الا وهو قطب يشار اليه بالبنان . هذا فضلا عن ان الصوفى الكردى (معروف النودهى) لا يذكر من اين وصلته هذه المعلومات ولا يحاول اسنادها الى كتاب معروف او غير معروف فالقصد منها واضح وهى زيادة تقدير للشيخ عبد القادر ورفع لمكانته و تزكية لطريقته بتقريبه من ائمة الصوفية الذين سلفوا .

على رأس الطريقة يقوم الشيخ او (البير) او (الدليل) و معنى البير ''لغويا،، الرجل المسن ، هذا الشيخ بمؤهلاته و كراماته يصير مرشدا او دليلا او رئيسا روحيا للمريدين (جمع مريد وهو الطالب اوالقاصد) الى المعرفة والعلم . وتسمى المدرسة التى يجتمع فيها التلامذة للارشاد الى طريقته وسماعه بـ (التكية) او الرباط او الخانقاه وهو مركز الدراويش والمتصوفة الذين يعكفون على الذكر والعبادة والانقطاع عن الناس فيها الى جانب رياضة النفس وقمع الشهوات . و فيها يعلن المريد توبته وندامته ثم يباشر بالرياضة وفق ارشاد (پيره) حتى يجد هذا المرشد ان تلميذه وصل المرحلة التى تجعله مستحقا لتسلم الطريقة وعندها يعلن الامر (كمن يعطيه شهادة تخرج) ويجيز له ان يرشد ويعلم . فاذا سار فى الطريقة سيرا حسنا و صحيحا ارتقى بطول الممارسة الى مرتبة (البير) و عين خليفة،، للشيخ اى خلفا له . واذا زاد الخلفاء أذن لهم بالرحيل وتأسيس تكايا خاصة بهم فى بلاد اخرى . و يكون اذ ذاك اهلا لتلقين تعاليم شيخه او دليله

للآخرين و يجوز له ان يجمع من حوله المريدين. فاذا بلغ درجة مناسبة من الكرامة كان له ان يظهر بمظهر الشيخ و يغدو دليلا لجيل جديد من التلاميذ. و كل اجازة بالطريقة يجب ان تتضمن قائمة كاملة باسماء الخلفاء الروحيين متسلسلة (تدعى السلسلة و قد تكلمنا عنها فيما سلف وسنعود الى التكملة فيما بعد) تصل حتى (ابى بكر الصديق) اول الخلفاء او (على ابن ابى طالب)(٢٧).

العقيدة القادريه في ميدان التطبيق— تذكر دائرة المعارف الاسلامية ان الطريقة القادرية فى نطاق الممارسة والشعائر هى مثل الممارسة التى كان يتبعها (جمال الدين الجوزى) احد تلاميذ الشيخ المشهورين فى بغداد الذين نحوا منحى شيخهم العتيد فى الوعظ والارشاد. و قد وصفت تلك الطريقة وصفا دقيقا فى رحلة (ابن جبير ٤٥١ — ٦٠٧هـ ١١٤٥ — ١٢١٧م) ودونك اياها.

''الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين الجوزى ابى الفضائل ابن على . . من ابهر آياته واكبر معجزاته انه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن و عددهم نيف على العشرين قارئا. فينتزع الاثنان منهم اوالثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق. فإذا فرغوا تلت طائفة اخرى على عددهم آية ثانية. ولايزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى ان يتكاملوا قرآءة و قد اتوا بآيات مستشبهات لايكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا او يسميها نسقا. فاذا فرغوا اخذ هذا الامام الغريب الشان فى ايراد خطبته عجلا مبتدرا و افرغ فى أصداف الاسماع من الفاظه درراً وانتظم اوائل آلايات المقروءات فى أثناء خطبته فقرأ واتى بها على نسق القراءة لها لامقدما ولا مؤخرا ثم اكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . . ثم انه بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من ذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، و ذابت لها الانفس احتراقا، الى ان علا

الضجيج، و تردد شهقاته النشيج، واعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقى ناصيته بيده فيجزها و يمسح على رأسه داعيا له . و منهم من يغشى عليه فيرفع فى الاذرع اليه . . . .

" . . . . ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له بكرة يوم الخميس . . . بباب بدر فى ساحة قصور الخليفة ومناظرة مشرفة عليه و هذا الموضوع المذكور هو من حرم الخليفة و خص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته و من حضر، و يفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع و قد بسط بالحصر، و جلوسه هذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس و قعدنا الى ان وصل هذا الحبر المتكلم، فصعد المنبر وارخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان، و قد تسطر القراء امامه على كراسى موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ماشاؤا واطربوا ماارادوا وبادرت العيون بارسال الدموع . فلما فرغوا من القراءة وقد احصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات — صدع بخطبته الزهراء الغراء واتى باوائل الآيات فى اثنائها منتظمات و مشى بالخطبة على فقرة آخر آية فيها على الترتيب الى ان اكملها و كانت الآية" . . . الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس" فتمادى على هذا السنن وحسن اى تحسين، فكان يوسه فى ذلك اعجب من اسسه . ثم اخذ فى الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى لها بالستر الاشرف والجناب الأرأف ثم سلك سبيله فى الوعظ كل ذلك بديهة لاروية ويصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة اخرى . فأرسلت وابلها العيون وابدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، بالتوبة معلنين، وطاشت الالباب والعقول وكثر الوله والذهول وصارت النفوس لاتملك تحصيلا ولاتميز معقولا ولاتجد للصبر سبيلا، ثم فى اثناء مجلسه ينشد باشعار من النسيب مبرحة

التشويق بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجدا و يعدو موضوعها ينبنى زهدا . وكان آخر ما انشده فى ذلك وقد اخذ المجلس مأخذه من الاحترام واصابت المقاتل سهام ذلك الكلام :

اين فؤادى اذابه الوجد واين قلبى فما صحا بعد

يا سعد زدنى جوى بذكرهم بالله قل فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه الى ان خاف الافحام، فابتدر القيام، و نزل عن المنبر دهشا، و قد أطار القلوب وجلا، وترك الناس على احرمن الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر، فمن معلن بالانتحاب من متعفر بالتراب ، فياله من مشهد، ماأهول مرآه، وما أسعد من رآه، نفعنا الله ببركته وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته . وفى اول مجلسه أنشد قصيدا ميز القبس عراقى النفس فى الخليفة اوله :

فى شغل عن الغرام شاغل ماهاجه البرق بسفح عاقل(٢٨)

من هذا ومن الممارسات اللاحقة نجد الطريقة القادرية تعتمد فى التأثير على الحجة والكلام المقنع و تستند الى السنة والى تعاليم القرآن الكريم بالدرجة الاولى ولا تتطلب من المنتمى لها اكثر من التوبة والتجرد من متاع الدنيا . ولاتستدعى مراسم خاصة جدا . الا ان ذلك لم يعتم كثيرا فقد انجرفت الطريقة فيما تلا من العصور بما انجرفت به الطرق الاخرى و قل من اتباعها من تمسك بعرى الممارسة الاولى — فمارس دراويشها فيما بعد المظاهر العنيفة كالرقص حتى فقدان الوعى واستخدام الدف وآلات الايقاع وايقاع الاذى باجسامهم فى حفلات الذكر والسير على النار و غير ذلك مما سنشرحه فى ختام بحثنا هذا .

آثار الشيخ عبدالقادر الگيلانى— ان ماجاءنا من آثار الشيخ كله دينى الصبغة . ومعظمه خلاصات ومختصرات لمواعظه وارشاداته : والمعروف منه هو هذا : -

(١) الغنية لطالبى طريقة الحق — و هو رسالة فى الاخلاق والسلوك . طبع لاول مرة فى القاهرة (١٢٨٨هـ) بمطبعة بولاق .

(٢) الفتح الربانى — وهو مجموعة تتألف من اثنتين و ستين خطبة ألقاها فيما بين (٥٤٥ — ٥٤٦هـ ١١٥٠ — ١١٥٢م) طبعت مع ذيل فى القاهرة (١٣٠٢هـ) .

(٣) فتوح الغيب — وهو مجموعة تتألف من ثمان و سبعين خطبة فى مختلف الموضوعات . جمعها ابن الشيخ المدعو عبدالرزاق وضم اليها وصايا ابيه وهو فى فراش موته مع شجرة نسبه من جهة الاب وجهة الام، ودلائل عن رابطة الصوفية بالخليفتين (ابى بكر وعمر بن الخطاب) وعقيدته وطائفة من أشعاره . و فيه حاشية الشنطنوفى (بهجة الاسرار) طبع فى القاهرة (١٣٠٤هـ) .

(٤) حسب بشائر الخيرات — وهى ادعية صوفية طبع فى الاسكندرية (١٣٠٤هـ) .

(٥) جلاء الخاطر (ذكره جامى خليفه فى معظمه كشف الظنون). وهو مجموعة خطب اولها تحمل رقم (٥٩) وآخرها رقم (٥٧) و كلها مدرجة فى كتاب (الفتح الربانى) الذى اثبتناه . ولعله عنوان ثان للكتاب نفسه ؟

(٦) المواهب الرحمانية والفتوح الربانية فى مراتب الاخلاق السنية والمقامات العرفانية — وهو ضمن (روضة الجنات ص ٤٤١) وربما كان عين الكتاب الذى اثبتناه تحت رقم (٢) او (٣) او (٧) .

(٧) يواقيت الحكم (ذكره حاجى خليفة فى معجمه كشف الظنون) .

(٨) الفيوضات الربانية فى الاوراد القادرية — وهو مجموعة من الادعية طبع فى القاهرة (١٣٠٣هـ)

(٩) مواعظ تتضمن ايضا كتاب (بهجة الاسرار وغيره من آثار السير (المخطوط الرقم ٦٢٢ فى قائمة الدائرة الهندية هو نسخة غير دقيقة لهذا الاثر . وكتاب ايران يشيرون اليها عموما باسم (ملفوظات قادرى) .

فى هذه الآثار الكتابية يبدو لنا الشيخ عبدالقادر فقيها واعظاً قديرا متمرسا وواعظا متحمسا غيورا مخلصا ذرب اللسان قوى الحجة . واما كتابه (الغنية) فيحتوى فضلاعن الخطب ابحاثا حول ثلاث و سبعين فرقة دينية اسلامية جمعت تحت عشر طوائف . فى هذه الكتب ترى الشيخ يشير الى عدد من علماء النحو كالمبرد صاحب ''الكامل،، وفى اكثر الاحيان تجده يعود ليتستشهد بشارحى آى القرآن الاولين الى جانب اقوال اولياء الصوفية . وطريقته كما يتبين من هذه الآثار انه لايحيد عن السنة ولاينحرف، واسلوبه الكتابى او بالاحرى الالقائى اسلوب جدى خال من الشطحات . مع هذا نجد بعض التفسيرات الصوفية لآيات القرآن والتشديد والتوصية بترديد بعض العبارات والادعية خمسين مرة أو مائة مرة .

ان الخطب التى يحتويها الكتاب الرقم (٢ ـ الفتح الربانى) هى فى الواقع خير ما فى تراث الاسلام من خطب على الاطلاق . فالروح التى تعظ بها ليست فى الواقع روح حض على الاحسان اوعمل الخير . بل هى رغبة حارة صميمة من الواعظ فى ان ''يغلق ابواب جهنم و يفتح ابواب الجنة لسائر البشر،، بصرف النظر عن اديانهم و معتقداتهم . و نادرا ماترى الشيخ يستخدم التكنيك (المصطلح)

الصوفي. كما انه ينزع الى التبسيط، فقلما استخدم التعابير التي يصعب فهمها على السامع . ان الخط العام الذي تسلكه تلك الخطب في التصوف هو الحاجة الى قضاء فترة نسك وزهادة في اثنائها يستطيع المريد او التلميذ ان يقطع نفسه عن العالم ويتأمل في احواله بعيدا عن المؤثرات الدنيوية . على ان باستكانه بعد قضائه هذه الفترة ان يعود الى الدنيا ليستمتع بنصيبه من طيباتها اثناء قيامه بهداية الآخرين .

و من موضوعات المواعظ الرئيسة أيضا شرح المبدأ الصوفي القائل ''ان كل شيء سواء أهو متاع من الدنيا او جزاء من الآخرة انما هو حجاب بين المريد و بين الله (الحق) . وان افكار (المريد) يجب ان تتوجه الى (الحق) فحسب . وتؤكد المواعظ على ارشاد المستمعين بان يصيبوا الاولياء من حياتهم ولو كان ذلك يؤدي الى حرمان أقربائهم منها .

لاتجد الشيخ يشير الى نفسه او يتحدث عنها الا عرضا . وان اتفق وأشار الى نفسه كانت اشارته متواضعة بعيدة عن التعالي والمباهاة . وهو يطلق على نفسه تعابير مخصوصة مثل (مسن اهل الارض) . هذه العبارة لاتعني أكثر من أنه قادر بسهولة على التمييز بين الجادين والهازلين من قصاده و مستمعيه . ويلاحظ كذلك ادعاؤه بكل حزم و جزم انه ينطق بحسب اراء اهل السنة والثقات واهل العمدة منهم .

آراء العلماء والصوفيين فيه : ان الاحاديث التي نقلها مريد و الشيخ عبدالقادر و تلامذته عنه (كعبد الله بن محمد البغدادي . و عبد المحسن البصري . و عبدالله بن نصر الصديقي (انوار نار) غير متوفرة في مظانها حاليا وانما نقلها عنهم صاحب بهجة الاسرار(٢٩) . و في معجم السمعاني نجد كلمة (شيخ)

تسبق كلمة (جيل) فهى كنية اشتهربها (شيخ جيل) اعنى انه كان يعرف بهذه الكنية . اذ لانجد بعد هاتين اللفظتين غير فراغ . و مع هذا فنحن نجد للشيخ سيرة جيدة اثبتها نجل السمعانى. (٣٠) الا ان اسلوب تلك السيرة خال من الحرارة والحماسة . و فى سيرة اخرى لـ (موفق الدين عبدالله المقدسى) الذى كان ملازما له خلال الايام الخمسين الاخيرة من حياته يذكر ان اهالى بغداد كانوا يجلونه غاية الاجلال وانه عزيت اليه كرامات عديدة، الا ان مورد هذا الحديث يعترف بانه لم يشهد احد شيئا منها بام عينه . و كان هو و شخص آخر تلميذى الشيخ الوحيدين فى فترة معينة من الزمن .

اما معاصره (ابو الفرج ابن الجوزى)(٣١) فهو يحدثنا عن نجاحه العظيم كواعظ و خطيب، فيقول ان كثيرا من مستمعه كانوا يخرون صرعى لساعتهم بغلبة العاطفة عليهم . و يسجل حفيد ابن الجوزى هذا فى (مرآة الزمان) عددا من المعجزات و الكرامات التى تمت على يد الشيخ عبد القادر .

و يذكر ابن عربى المولود فى (٥٦٠هـ ١١٦٥م) اى قبل وفاة الشيخ بسنة واحدة — أنه ''كان من الاولياء الصالحين وانه قطب عصره وزمانه(٣٢) وصاحب هذه الطريقة والقاضى الذى يحتكم اليه الناس(٣٣) و واحد من الملامتية،،(٣٤) . كما عزى الى هذا الصوفى الشهير ايضا قوله عن الشيخ عبدالقادر انه ممن ''حمد الله وهو فى الرحم،، وان مقامه يعلو مقام سائر البشر وهو أدناهم الى الحق (الله) .

وفى كتاب (بهجة الاسرار) لمؤلفه المتوفى فى ٧١٣هـ ١٣١٤م) اى بعد أن توفى الشيخ بنحو قرن و نصف قرن نجد ثبتا بطائفة من الكرامات تمت على يد الشيخ دعمها بايراد قائمة اسماء شهود تواتر عليها قال الامام ابن تيمية

عنها انها (اى تلك الشهادات) تبلغ حد القناعة، وتستوفى متطلبات التحقيق، و ان كان يشوب بعضها ضعف .

على ان (الذهبى) (٣٥) طعن بصحة ماجاء فى كتاب بهجة الاسرار قائلا انه جاء بحكايات خيالية لاقيمة لها . فى حين نجد ابن الوردى(٣٦) الذى ينقل عن بهجة الاسرار ليطعن بلهجة تفوق لهجة (الذهبى) عنفا وشدة فى صحة الاقوال المتعالية والمتعجرفة التى عزا صاحب الكتاب قولها للشيخ عن نفسه فقد ابتدأ بقائمة من الاسماء زعم ان اصحابها سمعوا الشيخ يقول ''قدمى هذه على عنق كل ولى،، و ادعى كذلك بموجب قائمة شهوده تلك انه ادعى حيازته على ،، سبعين بابا للمعرفة، كل باب منها اوسع مما هو بين الارض والسماء . . . الى غير ذلك من الاقوال .(٣٧)

على ان الكتاب الصوفيين كالدميرى (٣٨) صاحب (الشمائل فى الفقة) لا يرون فى هذه الاقوال باسا ويقبلونها عن الشيخ و يستشفون منها دليلا على سموبقامه و سهابته الكبيرة فى النفوس .

ان مثل هذه الاقوال لاتجد لها مشبها ولا اثرا فى كتب الشيخ المحققة . وان وجود امثال لها فى الاشعار المعزوة له ربما كان سببه حماسة تلاميذه له وفرط تعظيمهم لمقامه . فهذه الاقوال المنسوبة اليه ترفعه فوق مقام الانبياء انفسهم ! ولقد عرف ايضا بـ (سلطان الاولياء) ولايذكر مريدوه واتباع طريقته اسمه عادة الا مقرونا بواحد من هذه الصفات — ''مشاهد الله . أمر الله . فضل الله . أمان الله. نور الله . قطب الله. سيف الله . فرمان الله . برهان الله . آية الله . غوث الله . القوس الاعظم،،(٣٩)

ذريته — ربما ساعد على بناء اسطورة الشيخ اولاده العديدون الذين يذكر

صاحب (بهجة الاسرار) اسماء احد عشر منهم اولئك الذين تأثروا خطى ابيهم في العلم والتصوف .

١ - عيسى (توفى فى مصر ٥٧٣هـ أو ١١٧٧م)

٢ - عبدالله (توفى فى بغداد ٥٨٩هـ ١١٩٣م)

٣ - ابراهيم (توفى فى واسط ٥٩٢هـ ١١٩٧م)

٤ - عبدالوهاب (توفى فى بغداد ٥٩٣هـ ١١٩٧م)

٥ - يحيى (توفى فى بغداد ٦٠٠هـ ١٢٣٠م)

٦ - محمد (توفى فى بغداد ٦٠٠هـ ١٢٠٤م)

٧ - عبدالرزاق (توفى فى بغداد ٦٠٣هـ ١٢٠٧م)

٨ - موسى (توفى فى دمشق ٦١٨هـ ١٢٢١م)

٩ - عبدالعزيز (انتقل الى دجيل* وهى من قرى سنجار شمال العراق الغربى و توفى فى ٦٠٢هـ ١٢٠٦م) .

١٠ - عبدالرحمن (لم يذكر محل وفاته فى ٥٨٧هـ ١١٩١م) .

١١ - عبدالجبار (توفى فى ٥٧٥هـ ٧٩-١١٨٠م) .

و يشير بعض المراجع الى عدد آخر قليل من الاولاد اشارة باهتة مع بعض المعلومات و منها ان (عبدالوهاب) الذى يتسلم الطريقة من والده يعود ليسلمها بدوره الى ابنه (عبدالسلام ٥٤٨ — ٦١١هـ ١١٥٣ — ١٢١٥م) الذى يسلمها الى ابن عمه (ابى صالح نصر بن عبد الرزاق (٥٦٤ — ٦٣٣هـ ١١٦٨ — ١٢٣٦م) . وفى اثناء حكم الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٥٢ — ٦٢٢هـ ١١٨٠ —

١٢٢٥م) نفيت أسرة الشيخ عبدالقادر بصورة مؤقتة من بغداد وكان ذلك حسبما اورده ''سبط ابن الجوزى،، بسعاية ورغبة (ابى يونس) وزير (الناصر) . وقد هلك عدد من افراد الأسرة فى اثناء الفتح المغولى لبغداد فى العام ١٢٥٨م الا ان مقر الطريقة القادرية و مركزها ظل كما كان دائما فى هذه المدينة .

الممارسة العملية للدروشة القادرية : احتدم النقاش حول الدروشة وعلاقتها بالتصوف منذ القديم وبما اننا ذكرنا اننا سنتصدى الى الممارسة العملية للدروشة عموما والدروشة القادرية بالاخص فى الجزء الاخير من بحثنا هذا، ولما كان هذا القسم يحتوى كما سيتبين القارئ على نقاط تأمل جديدة و وجهات نظر قابلة للاخذ والرد لم يتطرق اليها الباحثون فى هذا الباب بشكل عميق فانه سيتعين علينا ان نجيب قبل كل شئ عن سؤالين .

ماهى الدروشة و من هم الدراويش و كيف التقت الطريقة القادرية بالدروشة ؟

هل من الممكن تفسير الظواهر الخارقة التى يقوم بها الدراويش فى اثناء مما رستهم شعائرهم (حلقات الذكر) تفسيرا يتفق مع العلم و روح العصر الواقعية ؟

اختلف اللغويون فى أصل كلمة (درويش) والمعروف عموما انها فارسية مركبة من لفظتين (در — باب) و (ويش — الباحث او الطارق) اى المستجدى اوالمتسول(٤٠) . على ان الاصل الصحيح الذى لاجدال فيه يبدو غير معروف . و بمفهوم الاسلام الواسع تطلق لفظة (درويش) على كل منتم الى عصبة دينية صوفية . و بالمفهوم الفارسى والتركى تستخدم بمعنى أضيق فتطلق على المتسول الدينى مقابل كلمة (فقير) بالعربية . بقى التصوف قرونا طوالا يسير على أسس

فردية، اى ان كل صوفى غير ملزم باتباع ما يما رسه غيره من شعائر. الا ان الدروشة احالت التصوف الى هيئة تنظيمية للحياة الدينية الاسلامية و بذلك أخرجته عن مجرد ''مجهود تبذله نفس انسانية واحدة لاجل خلاصها عن طريق التزهد والعبادة،، . هذا التنظيم اقتضى ان يوجد (معلم) يجتمع حوله تلاميذ (مريدون) فى حلقة اوحلقات قد تستمر جيلا او جيلين لااكثر بعد وفاة (المعلم) و يشرف عليها احد تلامذته النابغين واهل الثقة، ويدعى هذا بالخليفة . بقى التصوف كذلك محافظا على هويته واسلوبه العتيدين فى العبادة و بعنوان ثابت معين حتى القرن السادس الهجرى وهو عصر حكم السلاجقة الملى' بالاضطراب والقلق السياسى والفكرى. فهنا بدأ يظهر مايشبه اليوم بالنقابة المستمرة فى التصوف . واولها جزما هو الطريقة القادرية اى النقابة الصوفية المنسوبة الى الشيخ عبدالقادر الگيلانى فقد بقيت حتى يومنا هذا منذ تأسيسها . بعد ها ظهرت (طرق) او اتحادات صوفية منظمة متعددة كالطريقة النقشبندية والمولوية والبكتاشية)والاحمدية والرفاعية والحيدرية والسعدية الخ . . . إما أنشأها (اولياء) مستقلون وإما انشعبت عن طرق قديمة .

ان هذا الاصل التاريخى لنشوء الطرق يجب ان لايخلط بينه و بين الروايات التى يرويها كل صاحب طريقة عن مصدر ممارسته العملية وصيغ العبادة التى يستخدسها . كان أصل التصوف يدفع كما بينا الى (محمد ص) لاسباغ لون من الحماية عليه و ضمان سلامته من سهام النقد والتجريح، ولذلك وجب على (الولى) ان يربط بينه و بين هذا الاصل وهو (محمد — جبرائيل — الله) من خلال عدد متعاقب من الصالحين والاولياء المعروفين . و هذه هى (انسلسلة) فى النظام الصوفى . و على كل درويش ان يعرف سلسلته التى تربطه

بالله تعالى نفسه كما عليه ان يؤمن بان العقيدة التى تلقاها (اى الطريقة) هى الجوهر الاصلى والحقيقى لدين الاسلام . و ان شعائر و ممارسات تلك الطريقة هى بسمو وصحة (السلسلة) . واما علاقته بالسلسلة فتتم عن طريق مرشده (شيخه او معلمه او دليله او پيره او استاذه) وهو الشخص الذى ضمه اليه . والضم يوثق بـ (عهد) يتضمن قسما ونذرا واعترافا دينيا (توبة) وتختلف ايضا باختلاف الطرق . و قبل ان يوثق العهد بين المريد والشيخ يكون الاول قد عانى ممارسات تطول و تقصر يخضع فيها كما هو جلى الى رقابة مغنطيسية من قبل شيخه و يبقى على صلة وألفة معه .

كان الفقه فى الاسلام دوما بعض شكل من أشكال التصوف — الا ان الاخير منهما لا حدود معينة له فهو قد يبدأ مجرد تزهد صوفى و يبتعد حتى يبلغ الى عقيدة (وحدة الوجود) وانكار العقائد السماوية انكارا تاما . و بلغ الأمر الى الحد الذى انقسم الدراويش فى ايران مثلا الى فريق يطلق عليه (درويش باشرع) اى الدراويش المتمسكين بالشريعة والى (درويش بى شرع) اى الدروايش الذين لايؤمنون بالشريعة . و انكار الشريعة هنا لايقتصر على شعائرها و فرائضها وانما يتعداه الى قانونها الاخلاقى . و بين هذين الحدين المتحفظ جدا والمتطرف الى النهاية تجد مختلف انواع الطرق الصوفية .

ان الممارسة العملية للدروشة تشدد دائما على اهمية الحياة الدينية العاطفية و تميل الى توليد ظاهرة انجذاب مغنطيسى ذاتى او غير ذاتى ونوبات من النشوة والوجد . و من اشكال هذه الممارسات ان بعض الطرق تفرض على اعضائها قضاء فترات دورية معينة (من السنة او الشهر) فى انقطاع كلى عن العالم، والعزلة عن الناس تماما مع الصيام الى اقصى قدرات التحمل والترديد المتواصل و بدون نهاية لعبادات دينية مخصوصة وادعية معينة . ان تأثير هذا على الجهاز العصبى

والمخيلة والدماغ يكون عميقا جدا بالغ الخطورة وأوضح من ان تخطئه العين والحواس . و (الذكر)(٤٠) كما بينا هو المراسيم الطقسية لكل طريقة، و يقصد بالذكر تذكر الله تعالى . و الغرض منه هو ان يستحضر الذاكر لنفسه فكرة العالم الآخر الذى لايراه البشر والتوكل عليه والامل فى نواله . ولايأتى الذكر وحده وانما يرافقه تسام دينى رفيع وأخيلة جميلة و هذا هربا يسمى : (الوقوع فى الحال) او بعبارة اخرى (حالة النشوة اوالانجذاب) و يتضمن مفهوم (Hypnotism) (جذبا) انما يكون للمجذوب بمثابة حافز و منبه وانما يظهر كأثر ناشئ من الحالة نفسها . و من مظاهرها حالات فسلجية وتغيرات جسمانية لا ارادية و غير اعتيادية كالتشنج و خبط الاذرع والارجل فى الهواء او التمرغ على الارض والزعيق باصوات لاتشبه أصوات البشر، ويستغرقون تدريجيا الى هذه الحالة (حالة الجذب والنشوة) باداء حركات ايقاعية ورقص عنيف متواصل ومعبر يستخدمون آلات القرع كالدفوف والطبل (الطبل) بايقاع خصوص معروف . وتتناول بعض الطرق اعمالا خارقة كالمشى على النار وابتلاع الحصى وتذوقها من الحسة والتهام الجمر واكل الافاعى والعقارب وحتى حية وابخ كسر الزجاج وادخال السكاكين فى البطن وثقب الجلد اخيرا ضيقة و غرس الآلات الجارحة كالسكاكين والمدى والسيوف الحادة فى الاعضاء فيجتازون البهم الاشرار بذلك ويحققون فى النفس من وأهم السعادة والجلال نهر اعلوب، دعاية عمل جدا .

سجل الباحثون والمستشرقون بامور الشعوب و كثير من الرحالة الغربيين الى الشرق مشاهداتهم دون ان يعيروا من تحليل ما رأوه اى تفسيره كما تعاملنا نحن وما نزال . و عمد بعضهم الى التقاط صور فوتوغرافية والافلام سينمائية دعمها للتحليل العلمى ومن ان الموضوع كله يتم بصلة لتعويم مغناطيسى شاملة الجمهور

التفرج . و يظهر ان ممارسة هذه الاعمال العجيبة كان قديما قدم الدروشة واقرب مايخطر ببالنا ان ننقل ماشاهده الرحالة الشهير ابن بطوطة (٧٠٣ — ٧٨١هـ ١٣٠٣ — ١٣٧٧م) فى موضع بالقرب من ''واسط،، و فى موقع قريب من مدينة ''دلهى،، بالهند قال : -

''وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بنى أسد وفى ظهر اليوم الثانى الى الرواق و فيه رباط عظيم فيه آلاف الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ احمد كوجك حفيد ولى الله ابى العباس الرفاعى الذى قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده واليه انتهت الشياخه بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الدفوف والطبول واخذ الفقراء فى الرقص ثم صلوا العشاء الآخرة . . . واخذوا فى الذكر والشيخ احمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم اخذوا فى السماع وقد اعدوا احمالاً من الحطب فأججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون و منهم من يتمرغ فيها و منهم من يأكلها بفمه حتى اطفأوها جميعا و هذا دأبهم و هذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا . و فيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه ،،.

و يعقب ابن بطوطة فيروى سياقا مشاهداته لاعمال من سماهم باتباع الطائفة الحيدرية على مسيرة خمسة (ايام) من دلهى فى موضع (افقانبور) قال ''وصل هناك جماعة من الفقراء فى اعناقهم اطواق الحديد و فى ايديهم . وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة، وطلب منى كبيرهم ان آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم . . . فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا واخذوا فى السماع ثم دخلوا فى تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها . و طلب منى كبيرهم قميصا

. . . . . فاعطيته قميصا فى النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار وجاء الى بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيئاً البتة فطال عجبى منه . . . . .،،(٤٢)

يؤدى الدراويش القادرية مراسم الذكر (السماع) علنا وامام الانظار كافة دونما تهيب اوتحرج ويحضر كثير من الزوار والمتفرجين مجالس ذكرهم هذه ويأتون بهذه الاعمال العجيبة خلافا لنهى الشريعة عنها و واقع كون الطريقة القادرية اقرب الطرق الى السنة واشدها تمسكا بالشرع — ويعللون اتيانهم تلك الحركات والمراسيم بنفس ماعللناه ولكن بعبارات قاصرة بسيطة فيقولون ما زبدته ''ان الوصول الى الحق (الله) وتزكية النفس والباطن لايكتملان الا بالوصول بالجسم الى درجة اللذة الحسية عن طريق الحركات والتثنى الايقاعى السريع والرقص والطرب المتأتى من قرع الطبول واداء الذكر بصوت منغوم رتيب،، فيهزون رؤوسهم يمنة و يسرة ويتمايلون و يسقطون على الارض ويتخبطون و على اوجههم تكشيرة باهتة هى تكشيرة الاحساس بالنشوة واللذة . و بعد استمرارهم فى ذلك بمدة يبلغون مرتبة الغيبوبة والوجد و تلك هى مرحلة التحول الروحى(٤٣) وفى هذه الفترة يبدأون بمزاولة اعمالهم الخارقة . ويروى المستشرق المعروف (مينورسكى) وصفا لحلقة ذكر فى كردستان لاهل الطريقة القادرية فيقول : ''كان صديقى القديم فى رحلاتى (د . د . بليا بيف) قد التقى فى العام ١٩١٤م بمجموعة من هؤلاء الدراويش . و كانوا يرتلون (لا اله الا الله) وهم يتحركون ويتمايلون ببطء فى سبدء الامر ثم أسرع النغم على قرع الدفوف الكبيرة حتى وصلوا حالة غير اعتيادية من الغيبوبة والوجد فاخذوا يتقافزون فى اماكنهم و يضرب بعضهم بعضا برؤوسهم وينطحون حيطان الغرفة . وكانوا يدورون بسرعة فتتطاير خصلات

شعر رؤوسهم فى الهواء . كانوا يقومون بحركات هستيرية ويندفعون بقوة الى الحلقة . لا شك ان هذا المنظر مؤثر فى المشاهدين ولا سيما بالنسبة الى الاوروبيين الحاضرين . وقد استنكر احدهم هذا العمل ورجا من الشيخ ان يأمر بايقاف المراسم . وما ان صدرت اشارة خفيفة منه حتى هدأ الجو وبردت العقول(٤٤) .

هذه الاعمال كانت تعتبر مجرد حيل من ناحية . و من ناحية اخرى حقيقة ممكنة بحالة الجذب والمغنطة . ولكن ليس هذا كل شئ فهنالك حالة اخرى تظهر فى الدراويش اكثر استلفاتا للنظر وادعى الى الدهشة واصعب تفسيرا انها ظاهرة آلية (ذاتية الحركة) نوه بها سينورسكى تنويها خفيفا دون ان ينتبه اليها . وهى باكثر تفصيل سماع الدراويش اشياء لاتسمعها الاذن المجردة ورؤية مالاتراه العين العادية (المقدرة على الاستبصار) و فى بعض الاحيان ارتفاع الجسم فى الهواء خلافا لقانون الجاذبية وهى امور تستدعى اهتماما اكثر من الباحثين ودراسة من العلماء المختصين . على ان هذه الخوارق الاخيرة وقف لاشك على شيوخ الطريقة والاولياء الصوفيين وهى التى توصف بالكرامات اى العجائب التى يأتيهم الاذن بها من الله تعالى (الحق) .

كان الاعتقاد السائد ان الخوارق التى يأتيها الدراويش هى مجرد حيل . اومغنطة عامة يفرضها الشيخ على الحاضرين و منهم الدراويش انفسهم او يفرضها الدراويش القائمون بالاعمال انفسهم . فيؤدون او (لايؤدون) ماهو مجرد حركات فحسب، يتخيلها الناظر وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسى حقيقة واقعة بينما هى مجرد وهم قائم فى المخيلة . لكن تطور التصوير السينمائى والفوتوغرافى و عدم امكان تأثر الآلة بالتنويم المغناطيسى وخروجها عن نطاق قابلية الايحاء ألجات المهتمين بالبحث عن تعليل علمى آخر اقرب الى المنطق . وما نراه نحن وهو

لااكثر من رأى او تعليل قد يشوق المستتبع الى استقصائه او تخطئته بتعليل آخر — هو ان الشيخ الذى يجب حضوره قطعا فى مجالس الذكر تتعاون قوته المغناطيسية مع حالة الجذب التى يبلغها الدرويش لاستحداث ظاهرة روحية و فسلجية عجيبة فى تكوين الانسان وهو تحكم الدماغ تحكما مطلقا فى عمليات الاجهزة العضوية فى الجسم وخاصة الدورة الدموية والجهاز العصبى و فى عملية نسج خلايا الجسم فيوقف عملها فلاتتلف الخلايا بتأثير الشدة الخارجية و يتوقف الدم عن سريانه فى الناحية المصابة ولا يبقى للجرح من أثر عندما يضع الشيخ يده على المكان المصاب، وتفسح الانسجة ومجموعات الخلايا التى تكون الاعضاء الداخلية (الاحشاء) مكانا للجسم الغريب (سكينا كان ام دبوسا) عندما ينفذ اليها دون ان تصاب بتمزق . ويفقد الجهاز العصبى احساسه او يرفض ابلاغ رسالة الالم الى الدماغ فلايشعر المطعون بشئ ولا يحترق لسان وفم مبتلع جمرات النار ولا تتأثر بشرته بلذعاتها . ان ظاهرة ايقاع الشدة هذه لمختلف الاسباب الروحية لا يستطيع العلماء انكارها مثلما لا يستطيعون تعليلها فى الوقت الحاضر ومازال العلم قاصرا عن تقديم تفسير لمعظم ظواهر هذا الكون والاحياء التى تعيش فيه . و ليس ببعيد ابدا ان تكون اعمال الدراويش هذه مما قصر باع العلم عن اعطاء تفسير له حتى الآن وظاهرة (الكرامات) التى يقوم بها الشيوخ تخضع ايضا لنفس الفرض الذى بسطناه وربما خضعت ايضا لنفس التعليل وهو مقدرة الشيخ الخارقة على التحكم باعضاء جسمه تحكما مطلقا لفترة معينة من الزمن و فى احوال معينة يعرفها هو نفسه فحسب .

هوامش البحث و تعليقاته

(١) عن الشيخ عبدالحق الدهلوى - ان ولادة الشيخ عبدالقادر كانت فى السنة (٤٧٠هـ) وهوما يرجحه المستشرقون (انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة عبدالقادر الكيلانى) أخبار الاخيار طبع لاهور ب - ت ص ١٥ - ١٦

(٢) يرى بعض الباحثين ان ''جيل،، هو اسم لقرية قريبة من بغداد . وهو زعم مردود أساسا لان المصادر كلها اجمعت بان سكنى (الشيخ عبدالقادر) بغداد جاء متأخرا وانه اقبل اليها طلبا للعلم فحسب.

(٣) قاموس ايرانشهر ج ١ ص ٦٠٥ .

(٤) النجوم الزاهرة (ابن تغرى بردى) ج ٥ ص ٣٧١ - القاهرة ١١٧٩هـ

(٥) تاريخ الكامل ج ١١ ص ١٤١ . شذرات الذهب (عبدالحى ابن العمار الحنبلى ج ٧ ص ٩٨

(٦) تاريخ ابى الفدا - الحافظ ابن كثير الدمشقى ج ١٣ ص ٣٠٢ بيروت ١٩٦٦

(٧) رياض البساتين (الشيخ محمد أمين) ص ١٤

(٨) يدعى (على القرمانى الحنفى فى كتابه (الحق الظاهر فى شرح حال الشيخ عبدالقادر ''ان شيخ جيل لايمت بصلة النسب الى النبى وآله الطاهرين وانما ادعى ذلك بعده اولاده،، انظر هامش تاريخ السليمانية لامين زكى (ترجمة جميل روژبيانى) ص ٣١٣

(٩) نفحات الانس (عبدالرحمن جامى) ص ٣٥٥ . تاريخ جامع الشيخ عبدالقادر الكيلانى و مدرسته العلمية (هاشم الاعظمى) بغداد ١٩٧١ ص ١١

(١٠) رويت هذه الحكاية بشكل مختلف عما ورد فى المتن فى كتاب ''أرزش ميراث صوفيه،، . فهاهنا يكون مسرح الحادثة طريق مكة والشيخ فى قافلة متوجهة اليها . ولايرد ذكر شيء عن توبة قطاع الطرق عند ما أصدقهم الشيخ عبدالقادر الخبر عن مخبا نقوده . وفى رأينا ان الشق الاول من الحكاية وهو مكاشفة الشيخ اللصوص بموضع ماله مما يقبله العقل والمنطق لانه قريب من صفات الشيخ و فضيلته التى عرف بها فيما بعد . اما مسألة توبة اللصوص آلاتية ففيها نظر وهى أقرب الى الشك بصحتها من الايمان بها فليس من المعقول ان يبادر اللصوص الذين تحجرت قلوبهم وتبلدت عقولهم من كثرة اتخاذهم القتل والسلب وارتكاب المحرمات مهنة - هكذا و بدون سبق تمهيد الى الاهتداء دفعة واحدة عن آخرهم دون اعتراض واحد منهم على الاقل . لذلك تكون رواية (ارزش ميراث صوفية) اقرب الى المنطق والعقل حينما اسقط من الحكاية الجزء الخاص بتوبة اللصوص واورد بديلها الذى هو اقرب الى التصديق . اذ انه قال ''ان اللصوص الذين انذهلوا من موقف الشيخ بادروا الى منحه مالا فقام بتوزيعه على الفقراء (دكتر عبدالحسين زرين كوكب) ص ٨١

(١١) نفحات الانس (جامى) ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(١٢) پير گيلان (باهتمام محمود محمدى قادرى) سنند ج ١٣٧٥هـ . ص ٤ . تاريخ السليمانية ص ٣١٢ - ٣١٣ . ارزش ميراث صوفية (عبدالحسين زرين كوكب ص ٨٠) .

(١٣) تاريخ جامع الامام الاعظم و مساجد الاعظيمة (هاشم الاعظمى) ج ٢ ص ٢٤٧ بغداد ١٩٦٥ .

تاريخ السليمانية ص ٢١٣ .

(١٤) حسنات العارفين (محمد داراشكوه - بامقدمه و تصحيحات مخدوم رهين بتهران) ١٣٥٢ شرقى . ص ١٠٠ . تاريخ جامع الشيخ عبدالقادر الگيلانى ص ٤٣ .

(١٥) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانكليزية) مادة عبد القادر الكيلانى .

(١٦) أخبار الاخيار ص ١٥

(١٧) تاريخ جامع الشيخ عبدالقادر الكيلانى ص ١٨ - ١٩

(١٨) قوت القلوب (ابو طالب المكى) طبع القاهرة ج ١ ص ١٤١

(١٩) Notes on some Sufi Lives: Amejroz (J.R.A.S) 1912, S. P 556

(٢٠) شرح البردة (حسن العلوى) ج ٣ ص ٧٧ طبع القاهرة ١٢٩٧

(٢١) العقيدة والشريعة فى الاسلام (كولد تسيهر) الترجمة العربية ص ٣٥

(٢٢) عيون الاخبار لابن قتيبه ص ٢٥٥

(٢٣) و (٢٤) - هو ابو القاسم عبدالكريم ابن هوازن القشيرى تو فى ٤٣٧هـ ١٠٣٥م . انظر رسالته الرسالة القشيرية فى علم التصوف ص ٣٠ - ٣١ طبع بيروت

(٢٥) لم يذكر مؤلف كتاب (جامع الشيخ عبدالقادر الگيلانى) اسم (ابى الحسين) ضمن سلسلته لسند الطريقة القادرية . كما انه اختتم السند بالامام على عن طريق (معروف الكرخى) عن الامام الرضا وآبائه الطاهرين (انظر الكتاب ص ٤٣) .

(٢٦) مكتوب أمرونهى (السيد كاك احمد ابن معروف النودهى) طبع بغداد ١٩٣٦ ص ٣

(٢٧) كرد و ترك و عرب . (س. ج . ادموندز) تعريب جرجيس فتح الله ص ٦٤ .

(٢٨) رحلة ابن جبير ص ١٩٩ — ٢٠٢ طبعة بريل — ليدن ١٩٠٨ .

(٢٩) بهجة الاسرار ص ١٠٩

(٣٠) هو تاج الاسلام القاضى ابو سعيد عبدالكريم ابن محمد السمعانى صاحب كتاب (الانساب) . فقيه و محدث شافعى (٥٠٩ — ٥٦٢هـ ١١١٤ - ١١٦٦م)

(٣١) هو عبد الرحمن ابن الجوزى فقيه حنبلى و مؤرخ صاحب كتاب المنتظم فى تاريخ الامم (٥١١ - ٥٩٧هـ ١١١٦ - ١٢٠٠م) .

(٣٢) الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٦٢

(٣٣) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٤

(٣٤) المرجع نفسه ج ٣ ص ٤٤

(٣٥) هو شمس الدين التركمانى من ائمة المحدثين والمؤرخين ولد فى دمشق و درس فى القاهرة و علم فى زاوية (ام صالح) فى دمشق له كتاب ''تذكرة الحفاظ او ميزان الاعتدال فى نقد الرجال،، (٦٧٣ — ٧٤٩هـ ١٢٧٤ — ١٣٤٧م) .

(٣٦) عمر ابن الوردى من فقهاء الشافعية تولى القضاء بحلب له كتاب ''المختصر فى اخبار البشر،، وهو صاحب القصيدة اللامية المشهورة بلامية ابن الوردى . (٦٩٠ - ٧٤٨م) .

(٣٧) التابعون المتأخرون للشيخ عبد القادر و منهم صاحب رسالة ''مخازن القادرية،، الفارسى . وهى مخطوطة باللغة الفارسية محفوظة فى المتحف البريطانى (الخزانة الشرقية الرقم ٢٤٨) بذلوا جهودا معينة للتخفيف والتقليص من معنى العبارة الاولى الواسع وحاولوا تبرير موقف الشيخ من قولها دون ان يتصدوا لنفيها او الشك فى صحة نسبتها اليه .

(٣٨) تاج الدين الدميرى (٧٣٥ - ٨٢٩هـ ١٣٣٤ - ١٤٢٥م) معلم الشيخونية و قاضى قضاة الشافعية فى القاهرة زمن الملك الظاهر برقوق الذى كان رفيقا له فى حروبه .

(٣٩) دائرة المعارف الاسلامية المادة نفسها .

(٤٠) Vuller Lexicon : I.p. 839. 845

(٤١) يرد دون عادة عبارة ''قل الله،، او ''لا اله الاالله،، بدون نهاية تطبيقا لاحكام آلاية الكريمة ''يااايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا و سبحوه بكرة وأصيلا - سورة ٣٣ . آية (٤١ و ٤٢ و مما هو واجب الذكر هنا ان الكاتب نفسه قد تصدى الى الموضوع فى مجلة ''حول ايران،، التى تصدر باللغة الانكليزية .Around Iran, Jan, 1975, p.p. 26-27 و فى مجلة بروسيهاى تاريخى ''البحوث التاريخية (طريقت درميان كردها - الطريقة عند الاكراد) العدد (٥) ص ٣٦٨ - ٣٦٩ . ولم يكن استيعاب المجلتين يسمح بالاطالة والتفصيل فى وجهة النظر . (هناك نوعان من الذكر، الذكر الجلى اوالذكر العلنى والذكر الخفى اى الترديد بالقلب لابالشفاه واللسان . و هناك من يستعيض عن العبارات الواردة فى القرآن بعبارة (الله حى) . و هناك من يقرأ ابياتا من الشعر منغومة فيها اسم الله ويرددها . و ليس بشرط ان يكون الذكر باللغة العربية .

(٤٢) تحفة النظار فى غرائب الامصار و عجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) ط القاهرة ١٩٢٤ ص ١١٤ - ١١٥ .

(٤٣) اسلام در ايران - (ايليا پافلوفتش پيترو شفسكى) ترجمة كريم كشاورز تهران ١٣٥١ شرقى ص ٣٤٤ .

(٤٤) الاكراد ملاحظات وانطباعات (ميتورسكى) ترجمة الدكتور معروف خزندار ص ٥٣ طبع بغداد .

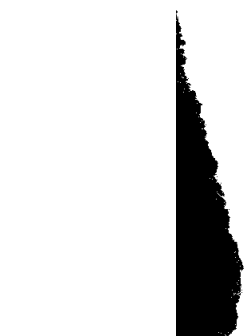

والخلفاء بعده أنهم كانوا يتوضؤن لكل صلاة، و عن النبى صلى الله عليه وسلم ''من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات،، . و عنه عليه الصلاة والسلام ''أنه كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد فقال عمر، صنعت شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال عمدا فعلته يا عمر،، يعنى بيانا للجواز .

يرى العلامه انه لا يجوز أن يكون الأمر شاملا للمحدثين و غيرهم، لهؤلاء على وجه الايجاب و لهؤلاء على وجه الندب، لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الالغاز والتعمية .

و قيل كان الوضوء لكل صلاة واجبا اول ما فرض ثم نسخ .

(٢) و قوله تعالى — الى الصلاة — الى، تفيد معنى الغاية مطلقا . فأما دخولها فى الحكم و خروجها فأمر يدور مع الدليل، فمما فيه دليل على الخروج قوله تعالى : ''فنظرة الى ميسرة ''لأن الاعسارعلةالانظار، و بوجود الميسرة تزول العلة ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظرا فى كلتا الحالتين، معسرا وموسرا . . . .

(٣) وقوله تعالى ''الى المرافق، والى الكعبين،، يقول الزمخشرى : لا دليل فيه على دخولها فى الحكم ولاخروجها عنه، فاخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها فى الغسل، وأخذ زفر و داود بالمتيقن، فلم يدخلاها، و عن النبى صلى الله عليه وسلم : ''أنه كان يدير الماء على مرفقيه،، .

(٤) وقوله تعالى : ''وامسحوا برءوسكم،، يرى العلامه ان المراد الصاق المسح بالرأس وماسح بعضه و مستوعبه بالمسح، كلاهما ملصق للمسح برأسه، وقد أخذ مالك بالاحتياط، فأوجب الاستيعاب أو أكثره على اختلاف الرواية

واخذ الشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ أبو حنيفه ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ماروى أنه مسح على ناصيته، وقدر الناصية بربع الرأس .

(٥) قوله تعالى : ''وأرجلكم،، . قرأ جماعة بالنصب، فدل على أن الأرجل مغسولة . فان قلت : فما تصنع بقراءة الجر و دخولها فى حكم المسح ؟ قلت : الأرجل من بين الاعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصب الماء عليها فكانت لينبه على وجوب الاقتصاد فى صب الماء عليها .

(٦) ''الى الكعبين،، قيل فجئ بالغاية اماطة لظن ظان يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية فى الشريعة . و عن على رضى الله عنه أنه أشرف على فتية من قريش فرأى فى وضوئهم تجوزا فقال : ويل للاعقاب من النار،، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلا و يدلكونها دلكا . و عن ابن عمر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ قوم واعقابهم بيض تلوح، فقال : ''ويل للأعقاب من النار،، و فى رواية جابر : ''ويل للعراقيب،، و عن عمرأنه رأى رجلا يتوضأ فترك باطن قدميه فأمره أن يعيد الوضوء . و ذلك للتغليظ عليه، و عن عائشة رضى الله عنها لان تقطعا أحب الى من أن امسح على القدمين، و قد ذهب بعض الناس الى ظاهر العطف فأوجب المسح . و عن الحسن أنه جمع بين الأمرين . و عن الشعبى : نزل القرآن بالمسح، والغسل سنة . وقرأ الحسن ''وأرجلكم،، بالرفع بمعنى وارجلكم مغسولة او ممسوحة الى الكعبين .

(٧) ''فاطهروا،، اى فطهروا بدنكم، و كذلك : ''ليطهركم،،

(٨) ''ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج،، فى باب الطهارة حتى لا يرخص لكم فى التيمم .

(٩) ''و لكن يريد ليطهركم،، بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء .

يا ايها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولاجنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر او جاء احد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فا مسحوا بوجوهكم و أيديكم ان الله كان عفوا غفورا .(٢)

معنى قوله تعالى : ''لاتقربوا الصلاة،، لاتغشوها ولا تقوموا اليها واجتنبوها، كقوله : ''ولا تقربوا الزنا . ولا تقربوا الفواحش،،

وقيل معناه ولاتقربوا مواضعها وهى المساجد، لقوله عليه الصلاة والسلام و ''جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ،، و قيل هو سكر النعاس وغلبة النوم كقوله : ''ورانوا بسكر سناتهم كل الريون . . . .

وقرئ — سكارى — بفتح السين، و سكرى على ان يكون جمعا نحو هلكى، وجوعى، لأن السكر علة تلحق العقل . أو مفردا بمعنى وأنتم جماعة سكرى، كقولك : امرأة سكرى . و سكرى بضم السين، كحبلى، على أن تكون صفة للجماعة، وحكى جناح بن حبيش، كسلى و كسلى، بالفتح والضم .

قوله تعالى ''ولا جنبا،، عطف على قوله وانتم سكارى، لأن محل الجملة مع الوا و النصب على الحال كأنه قيل : لاتقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا . والجنب يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذى هو الاجناب .

قوله : ''الاعابرى سبيل،، استثناء من عامة أحوال المخاطبين وانتصابه على الحال . فان قلت : كيف جمع بين هذه الحال والحال التى قبلها ؟ قلت : كأنه قيل لاتقربوا الصلاة فى حال الجنابة الا ومعكم حال أخرى، تعذرون فيها، وهى حال السفر و عبور السبيل عبارة عنه، و يجوز أن لايكون حالا . ولكن صفة

لقوله جنبا، أى ولا تقربوا الصلاة جنبا غير عابرى سبيل أى : جنبا مقيمين غير معذورين .

فان قلت : كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر ؟ قلت : أريد بالجنب الذين لم يغتسلوا، كانه قيل لاتقربوا الصلاة غير مغتسلين حتى تغتسلوا، الا أن تكونوا مسافرين . و قال من فسر الصلاة بالمسجد، معناه لاتقربوا المسجد جنبا الا مجتازين فيه اذا كان الطريق فيه الى الماء، او كان الماء فيه، أو احتلمتم فيه . و قيل ان رجالا من الانصار كانت أبوابهم فى المسجد، فتيصبهم الجنابة، ولا يجدون سموا الا فى المسجد، فرخص لهم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحد أن يجلس فى المسجد أو يمر فيه وهو جنب الا لعلى رضى الله عنه لان بيته كان فى المسجد .

فان قلت : أدخل فى حكم الشرط اربعة، وهم المرضى والمسافرون والمحدثون وأهل الجنابة فيمن تعلق الجزاء الذى هوالامر بالتيمم عند عدم الماء منهم . قلت : الظاهر أنه تعلق بهم جميعا وأن المرضى اذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول اليه فلهم أن يتيمموا، و كذلك السفر اذا عدموه، لبعده . والمحدثون واهل الجنابة كذلك اذا لم يجدوه لبعض الاسباب .

وقال الزجاج : ''الصعيد،، وجه الأرض ترابا كان او غيره، وان كان صخرا لا تراب عليه، لو ضرب المتيمم يده عليه و مسح لكان ذلك طهوره، وهو مذهب أبى حنيفة رحمة الله عليه .

فان قلت : فما يصنع بقوله تعالى فى سورة المائدة : ''فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه،، اى بعضه و هذا لايتأتى فى الصخر الذى لاتراب عليه ؟ قلت : قالوا ان ''من،، لابتداء الغاية . فان قلت : قولهم انها لابتداء الغاية قول متعسف،

ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل : ''مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب،، الا معنى التبعيض قلت : هو كما تقول، والاذعان للحق أحق من المراء .

قوله تعالى : ان الله كان عفوا غفورا،، كفاية عن الترخيص والتيسير، لان من كانت عادته أن يعفو عن الخطائين ويغفرلهم، آثر أن يكون ميسرا غير معسر.

فان قلت : كيف نظم فى سلك واحد بين المرضى والمسافرين و بين المحدثين والجنب، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة والحدث سبب لوجوب الوضوء والجنابة سبب لوجوب الغسل ؟ قلت : أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء فى التيمم بالتراب، فخص أولا من بينهم مرضاهم و سفر هم لأنهم المتقدمون فى استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الاسباب الموجبة للرخصة، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو ارهاق فى مكان لاماء فيه أو غير ذلك مما لا يكثر كثرة المرض والسفر .

مس كتاب الله : قوله تعالى : انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون(٣) .

قوله : ''فى كتاب مكنون،، مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم وهم المطهرون من جميع الادناس، أدناس الذنوب وما سواها . ان جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح، وان جعلتها صفة للقرآن، فالمعنى لاينبغى أن يمسه الا من هو على الطهارة من الناس، يعنى مس المكتوب منه، ومن الناس من حمله على القراءة ايضا، و عن ابن عمر أحب الى أن لايقرأ الا وهو طاهر . وعن ابن عباس فى رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب .

التطهر من النجاسات : فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين(٤) .

قوله : ''رجال يحبون أن يتطهروا،، و قرئ أن يتطهروا بالادغام، و قيل هو عام فى التطهر من النجاسات كلها، و قيل كانوالايناسون الليل على الجنابة ويتبعون الماء أثر البول، و عن الحسن هو التطهر من الذنوب بالتوبة، و قيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم، فحموا عن آخرهم . فان قلت : ما معنى المجتبين ؟ قلت : مجتهم للتطهر أنهم يؤثرونه و يحرصون عليه حرص المحب للشئ المشتهى له على ايثاره، و محبة الله تعالى اياهم : أنه يرضى عنهم و يحسن اليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه .

معنى الطهور : وأنزلنا من السماء ماء طهورا(٥)

قوله: ''طهورا،، بليغا فى طهارته، وعن أحمد بن يحيى ، هو ماكان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره . فان كان ما قاله شرحا لبلاغته فى الطهارة كان سديدا و يعضده قوله تعالى : ''و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به،، والا فليس فعول من التفعيل فى شئ، والطهور على وجهين : فى العربية صفة واسم غير صفة، فالصفة قولك ماء طهور، كقولك طاهر، والاسم قولك لما يتطهر به طهور، كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار، وقولهم تطهرت طهورا حسنا كقولك وضواء حسنا، ذكره سيبويه، و منه قوله صلى الله عليه وسلم ''لاصلاة الا بطهور،، اى طهارة . فان قلت : ما الذى يزيل عن الماء اسم الطهور ؟ قلت : تيقن مخالطة النجاسة او غلبتها على الظن تغير أحد أو صافه الثلاثة، أو لم يتغير أو استعماله فى البدن لأداء عبادة عند ابى حنيفه، و عند مالك بن أنس رضى الله تعالى عنهما مالم يتغير أحد أوصافه فهو طهور . فان قلت : فما تقول فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن بئر بضاعة : ''فقال الماء طهور لا ينجسه شيئ

الا ما غير لونه او طعمه او ريحه،، قلت : قال الواقدى كان بئر بضاعة طريقا للماء الى البساتين .

احكام الحيض : ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين(٦) .

قوله : ''المحيض،، مصدر يقال حاضت محيضا، كقولك جاء مجيئا ،وبات مبتيا .

'' قل هو أذى،، أى الحيض شيئ يستقذر ويؤذى من يقربه نفرة منه و كراهة له .

''فاعتزلوا النساء،، فاجتنبوهن يعنى فاجتنبوا مجامعتهن . روى أن أهل الجاهلية كانوا اذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش، ولم يساكنوها فى بيت كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت، أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب يا رسول الله : البرد شديد والثياب قليلة . فان آثرناهن بالثياب هلك سائر اهل البيت وان استأثرنا بها هلكت الحيض، فقال عليه الصلاة والسلام، انما أمرتم أن تعزلوا مجامعتهن اذا حضن، ولم يأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم . و قيل ان النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن فى كل شئ، فامر الله بالاقتصاد بين الامرين .

و بين الفقهاء خلاف فى الاعتزال، فابوحنيفة وابويوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الازار . و محمد بن الحسن لا يوجب الا اعتزال الفرج . وروى محمد حديث عائشة رضى الله عنها، أن عبدالله بن عمر سألها، هل يباشر الرجل

امرأته وهى حائض ؟ فقالت : تشد ازارها على سفلتها ثم ليبا شرها ان شاء وما روى زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال : لتشد عليها ازارها ثم شأنك بأعلاها، ثم قال و هذا قول أبى حنيفة، وقد جاء ماهو أرخص من هذا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يجتنب شعار الدم، وله ماسوى ذلك . وقرئ يطهرن بالتشديد، اى يتطهرن، بدليل قوله : ''فاذا تطهرن،، . وقرأ عبدالله حتى يتطهرن ويطهرن بالتخفيف . ''والتطهر ،، الاغتسال ''والطهر انقطاع دم الحيض، و كلتا القراءتين مما يجب العمل به . فذهب ابو حنيفة الى أن له ان يقر بها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم، وان لم تغتسل، وفى أقل الحيض لايقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة، و ذهب الشافعى الى أنه لايقربها حتى تطهر و تطهر فتجمع بين الأمرين، وهو قول واضح ويعضده قوله : ''فاذا تطهرن،، .

قوله : ''من حيث امركم الله،، من المأتى الذى أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل .

''ان الله يحب التوابين،،، مما عسى يندرئهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك .

''ويحب المتطهرين،، المتنزهين عن الفواحش، أو ان الله يحب التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهرة التوبة من كل ذنب ويحب المتطهرين من جميع الأقذار كمجامعة الحائض والظاهر قبل الغسل، واتيان ما ليس بمباح وغير ذلك .

نجاسة المشرك : انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . (٧)

عرض الزمخشرى لمسائل فقهية كثيرة، و لكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفى، بل أورد الاحكام فى المذاهب الاخرى، وكان أحيانا يرجح مذهب الشافعى على

مذهب أبى حنيفة كما نرى فيما يأتى :

النجس مصدر، يقال نجس نجسا وقذر قذرا و معناه ذوونجس لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهى ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة فى وصفهم بها، و عن ابن عباس رضى الله عنهما : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير . و عن الحسن : من صافح مشركا توضأ، واهل المذاهب على خلاف هذين القولين . و قرئ نجس بكسر النون و سكون الجيم على تقدير حذف الموصوف كأنه قيل انما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس وأكثر ماجاء تابعا لرجس وهو تخفيف نجس نحو كبد فى كبد .

قوله : ''فلا يقربوا المسجد الحرام،، فلا يحجوا اولا يعتمروا كما كانوا يفعلون فى الجاهلية .

قوله : ''بعد عامهم هذا،، بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبوبكر على الموسم، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه، و يدل عليه قول على كرم الله وجهه حين نادى ببراءة : ألا لايحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم، و عند الشافعى يمنعون من المسجد الحرام خاصة . و عند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد، و عن عطاء رضى الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله، و نهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم منه .

و قيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك .

نجاسة الخمر : يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .(٨)

أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد، منها تصدير الجملة بانما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام، و منه قوله عليه السلام ''شارب الخمر كعابد الوثن ''و منها أنه جعلهما رجسا كما قال تعالى : ''فاجتنبوا الرجس من الاوثان،، او منها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لايأتى منه الا الشر البحت، و منها أنه أمر بالاجتناب، و منها أنه جعل الاجتناب من الفلاح واذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خيبة و محقة، و منها أنه ذكرما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض من أصحاب الخمر و القمر ومايؤديان اليه من الصد عن ذكر الله و عن مراعاة أوقات الصلاة .

طهارة الثياب شرط فى صحة الصلاة : وثيابك فطهر، والرجز فاهجر .(٩)

أمر بان تكون ثيابه طاهرة من النجاسات، لأن طهارة الثياب شرط فى الصلاة لا تصح الا بها وهى الأولى والأحب فى غير الصلاة و قبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا، و قيل هو أمر بتقيصرها و مخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول و ذلك مالا يؤمن معه اصابة النجاسة، و قيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الافعال و يستهجن من العادات، يقال فلان طاهر الثياب و طاهر الجيب والذيل والاردان اذا وصفوه بالنقاء من المعايب و مدانس الاخلاق و فلان دنس الثياب للغادر و ذلك لان الثوب يلابس الانسان و يشتمل عليه فكنى به عنه، ألا ترى الى قولهم أعجبنى زيد ثوبه كما يقولون أعجبنى زيد عقله وخلقه، ويقولون المجد فى ثوبه والكرم تحت حلته، ولأن الغالب أن من طهر باطنه و نقاه عنى بتطهير الظاهر و تنقيته وأبى الا اجتناب الخبث وايثار الطهر فى كل شيئ .

معنى الكلمات : واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن(١٠)

قوله : ابتلى ابراهيم ربه بكلمات . اختبره بأوامر ونواه، واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الامرين مايريد الله وما يشتهيه العبد، كانه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك .

و قيل فى الكلمات هن خمس فى الرأس : الفرق و قص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق، و خمس فى البدن : الختان والاستحداد والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الابط .

و قيل هى مناسك الحج كالطواف والسعى والرمى والاحرام والتعريف وغيرهن .

المراجع

١ سورة المائده : ٦
٢ سورة النساء : ٤٣
٣ سورة الواقعة. ٧٧، ٧٨، ٧٩
٤ سورة التوبة. ١٠٨
٥ سورة الفرقان : ٤٧
٦ سورة البقرة : ٢٢٢
٧ سورة التوبة : ٢٨
٨ سورة المائدة : ٩٠
٩ سورة المدثر : ٤، ٥
١٠ سورة البقرة : ١٢٤